إدراك أولويات المرحلة في ملاحظات الداعية

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٦/٦/٢٠٠٩م

مما لا شك فيه أنَّ الله تبارك تعالى قد بيَّن لنا ما أمر به، وأرشدنا إلى ما نهى عنه لننتهي عنه، فكان الحلال بيّنًا والحرام بيّنًا، ونـــزل قوله تبارك وتعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] فلم يبقَ غامضٌ ولا ملتبس، لكنَّ الذي قد يلتبس مع وجود الوضوح والبيان إنما هو ترتيب الأولويات، فشرائع الإسلام كلها حقّ، لكن الإنسان قد يُطلب منه في بعض الأوقات أن يرتب أولوياته، وأضرب أمثلة حسّية فأقول:

قد يكون الإنسان محتاجًا إلى الثوب الأنيق، والغذاء الذي يتقوى به، والدواء الذي يزيل به علّته... ولكنه في لحظة ما حين يدهمه خطر شديد تجد أنه يعرض عن كل هذا، ويتوجه إلى وجهة واحدة يدفع من خلالها هذا الخطر، وبعد ذلك يرجع إلى علّته ويبحث عن الدواء، ثم يبحث عن الغذاء، وبعدها يبحث عن الثوب الأنيق.

هذا على المستوى الحسّي، وهكذا يرتّب الإنسان حاجاته حسًّا.

وليس توجيه الله سبحانه وتعالى للإنسان حينما أمره بأوامره ونهاه عن المنهيات إلاّ حاجات معنوية:

- فلم تكن الصلاة مجرّد أمرٍ تعسّفي يريد الله سبحانه وتعالى من خلاله أن يجهد العباد به، إنما كانت معراج الروح، وتدريبًا للإنسان على الطاعة والامتثال لأمر الله.

- وكذلك لم يكن تشريع الصيام من أجل أن يجيع الحقّ سبحانه عباده، لكنه كان من أجل أن يتعلموا في وقتٍ ما الاستغناءَ عن الأشياء التي تتعلق بها نفوسهم.

- ولم يكن تشريع الزكاة عقوباتٍ ماليةً، إنما كان يُعيد التوازن ويوزع الثروة.

- ولم يكن تشريع الحجّ من أجل إدخال الإنسان في مشقةٍ قد لا يستطيع (إن هو لم يفهم أبعادها) أن يكون في تفاعل وسعادة وسرور فيها، لكن الله سبحانه وتعالى فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً لما فيه من الحِكَم.

وهذه كلها حاجات، والإسلام عندما وجَّه فإنه كيَّف هذه الحاجات.

- فلم يطلب في وقت الحرب على سبيل المثال من المحاربين عند وقت الصلاة أن ينتظموا في صفوفهم، إنما طلب منهم أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى وقت الصلاة فيما يُعرف بصلاة الخوف، وقد تصل صلاة الخوف إلى انعدام الكيفيات كلها.

وفي وقت الجهاد جعل الله سبحانه الذي يصوم في رمضان عاصيًا لرسول الله.

فهناك إذًا إعادة ترتيبٍ في كل وقت ومراعاة أولوية.

- واقرؤوا الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه وغيره من أصحاب السنن: **(أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج عام فتح مكة في رمضان، فصام ثم أفطر فأفطر الناس معه، واستوى على راحلته بعد العصر ودعا بإناء من ماء فوضعه على راحلته ليراه الناس، فشرب فأفطر، فناوله رجلاً بجنبه فشرب، فقيل له:** (أي: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك) **إن بعض الناس قد صام** (أي: أتم صيامه وما بقي من النهار إلا ما بين العصر والمغرب)، **فقال: أولئك العصاة أولئك العصاة.**

فوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين صاموا بالعصاة، لأنهم لم يفهموا فقه الوقت، ولم يراعوا أولويته، ولم يفهموا حكم ظرفه، لأن المطلوب في ذلك الظرف أن يكون الإنسان على أعلى درجات الاستعداد البدنيّ، والصيامُ يُضعفه، فالأولوية في الوقت أن تجعل الطعام عبادة في رمضان، لأنها كانت تصادف ظرفًا يطلب الله سبحانه وتعالى فيه أولوية، وذلك حتى يدخل المسلمون مكة في حالةٍ من الاستعداد البدنيّ والحيويّ الذي من خلاله تتحقق الغاية والحكمة.

وهكذا أعيد ترتيب الأولويات.

وهذه القضية ربما نغفل عنها كثيرًا، والفَطِن الفَطِن هو الذي يفهم حكم الوقت وظرفه.

والأمثلة التي أسوقها إليكم في هذا الموقف كثيرة جدًّا، ونحن بحاجةٍ إلى مرونةٍ نفهم من خلالها مقاصد الشريعة، ونفهم من خلالها حكم الوقت، ونرتب الأولويات.

- وها هو النبي صلى الله عليه وسلم يعرف البناء الإبراهيميّ للكعبة، فالبناء الإبراهيميّ كان أوسع من البناء الذي بنته قريش، فإن قريشًا عند بناء الكعبة أنقصت مساحة الكعبة، وكان حِجرُ إسماعيل جزءًا من الكعبة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الأجدى أن يكون للكعبة بابان: باب للدخول وباب للخروج.

إنه صلى الله عليه وسلم متّبعٌ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو أشبه الناس بإبراهيم، وهو في لحظةٍ ما كان الحاكم الأعلى للأمة، لكنه صلى الله عليه وآله صحبه وسلم يقول لعائشة رضي الله تعالى عنها كما يروي الإمام مسلم: **(يَا عَائِشَةُ، لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنْ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَت الْكَعْبَةَ).**

لكنه صلى الله عليه وسلم مع هذا لم يفعل ما كان يتمناه وهو الحاكم الأعلى في الأمة، لأنه نظر إلى قلوب أهل مكة، فوجد أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، وكانوا يعظمون الكعبة، ولم يكن لديهم المقدرة على هذه المحاكمة التي يستطيع أصحاب القلوب الواسعة أن يفهموها، فعدل النبي صلى الله عليه وسلم عن تنفيذ اتّباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الكعبة التي بناها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وما كان هذا من النبي صلى الله عليه وسلم إلا ترتيبًا في الأولويات وفهمًا ووعيًا بالظرف وحكمِه.

- ومن ذلك الحدودُ الشرعية: فكما هو معلوم لا يستطيع أحد تبديلاً فيها ولا تغييرًا، لكن النبي صلى الله عليه وسلم يعلن فيقول كما في سنن الترمذي: **(لا تُقْطَعُ الأَيْدِي فِي الْغَزْوِ).**

فلو حصلت سرقةٌ بحضور النبيّ صلى الله عليه وسلم، الذي كان أعلى سلطة، في وقت الغزو والجهاد، وفي وقت قتال العدو، فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحالة يمنع تطبيق الحدود، لأن ذلك يقتضي أن الجيش ينبغي أن يعطل عضوًا من أعضائه.

فهناك ترتيب أولويات، فالجهاد فريضة والحدود واجبة، وترتيب الأولويات يقتضي تقديم الجهاد بأحكامه.

- وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أسقط تطبيق حد السرقة في عام المجاعة، وقال رضي الله تعالى عنه: **"لا تقطع اليد في عذَق، وفي عام سَنَة** (أي عام المجاعة)"، أي لو أن أحدًا سرق غصنًا فيه تمر لا تُقطع يده، ولو كان هذا في غير عام المجاعة لنُفِّذ فيه الحكم.

فإذا سرق السارق لم يكن عمر رضي الله عنه يرضى أن ينفّذ أحدٌ من الولاة حُكمَ قطعِ اليد، وما كان هذا من عمر رضي الله عنه إلا فهمًا للظرف ومراعاةً لحكم الوقت.

- وعثمان رضي الله عنه يجتمع لديه من شيوخ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين ابنا سيدنا علي والسيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو هريرة، وجمعٌ غفير من أعيان الصحابة... اجتمعوا لديه من أجل أن يدافعوا عنه حين جاء من يريد قتله رضي الله عنه، فهم يحيطون بداره ويريدون قتله وعنده سبعمائة من شيوخ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وها هنا ينظر رضي الله تعالى عنه إلى ما سيؤول الحال إليه، فلو أنه أذن لشيوخ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالالتحام مع القتلة الذين يريدون سفك دمه فسوف تكون ملحمةٌ لم يشهد مثلها التاريخ في المدينة المنورة، ويُراق فيها من دم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما يراق، من شيوخ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين يحملون علم النبي صلى الله عليه وسلم، فما الذي قاله عثمان؟

إنه ينظر إلى أخفِّ الضَّرَرين، فأي مفسدةٍ هي أحبُّ إلى قلبه، وهي أقلُّ ضررًا على أمة النبي صلى الله عليه وسلم؟ أن يقتل عثمان بن عفان وحده، أم أن يقتل نصف شيوخ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟

هكذا كان يرتب وينظر، ويقف - وهو الخليفة الذي أمر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه - فيقول: **أُقسم على من لي عليه حقّ، أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منـــزله.**

ثم قال لرقيقه العبيد الذين لديه: **من أغمد سيفه فهو حرّ.**

فالرقيق يملك تحرير نفسه بإغماد السيف، فحينما يغمد سيفه فهو حرٌّ لوجه الله.

وهكذا انتشر كلٌّ إلى بيته امتثالاً لأمر الخليفة، وبقي خليفة المسلمين عثمان وحده، فدخل القتلة وقتلوه.

إنه كان ينظر: فهو واحد بين أصحاب النبي، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحملون عِلم النبي صلى الله عليه وسلم...

هكذا يكون العظماء.. هكذا يكون الرجال الذين يفهمون قيمة المعاني قبل المباني.

- ومن ذلك ما حصل حينما قُتل سيدنا عليٌّ رضي الله تعالى عنه، واجتمع الناس كلهم فبايعوا ابنه الحسن على الخلافة، وكان أهل الشام ينادون بخلافة معاوية، وهنا ستقع الأمة في أزمة كبيرة بوجود خليفتين، فما الذي فعله الحسن؟

لقد صالح معاوية وبايعه، ووحّد صفوف المسلمين.

فبقطع النظر عن كون الحسن سبط النبي صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة، وبقطع النظر عن كل الاعتبارات – فالحسن أشبه الناس بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – نجده يترك الخلافة لمعاوية ويبايعه توحيدًا لصفوف الأمة، لأنه نظر إلى الأولويات، فرأى أن أولوية وحدة الأمة مقدّمة على كل الأولويات.

- وهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه، كان أمير المدائن، وكان في المدائن حذيفةُ صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حذيفة رضي الله عنه ربما ينقل بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقعةٍ ما، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ربما يوبِّخ في حادثةٍ ما بعض الأصحاب، ويكون هذا كما ورد في الحديث رحمة - فقد طلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعل كلَّ شتيمة أو سباب أو دعاء على أحدٍ دعاء رحمة له - فكان حذيفة رضي الله عنه ربما يُحدّث عن قولٍ قاله النبي صلى الله عليه وسلم بواقعةِ حالٍ وجَّهها إلى بعض أصحابه، ويستغرب الناس الذين لم يجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم كلمةً منه صلى الله عليه وسلم غاضبة في ظرف ما أن يقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصاحب من أصحابه.

ويأتي الناس إلى أميرهم سلمان الفارسي، فيقولون: قال حذيفة ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم في صاحب رسول الله فلان وفلان وفلان... فيجيبهم سلمان: حذيفةُ أعلمُ بما يقول.

وبعد ذلك يستدعي سلمان حذيفة ويقول له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغضب فيقول في الغضب للناس من أصحابه، ويرضى فيقول في الرضى للناس من أصحابه، أما تتوقف عن فعلك هذا يا حذيفة؟

أما تنتهي حتى تورِّثَ رجالاً حُبَّ رجال ورجالاً بُغضَ رجال، وحتى تُوقِع اختلافًا وفرقة؟!

إنك حينما تنقل وقائعَ في الحال في الرضى والغضب نقلاً انتقائيًّا فإن ذلك سيؤول إلى حصول صفين.

سمع الناس من حذيفة كلامًا في الرضى وسمعوا كلامًا في الغضب قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا سوف يصنّف الأصحاب بحسب كلام حذيفة (وكلها صحيحة لكنها كانت في ظرفٍ ربما لم يكن السامع يفهمه) إلى قسمين ويقولون: هؤلاء غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، وأولئك رضي عنهم.

قال له: **"أما تنتهي حتى تورِّث رجالاً حُبّ رجال ورجالاً بُغضَ رجال، وحتى توقع اختلافًا وفرقة؟ والله لتنتهيَنّ أو لأكتبَنّ إلى عمر".**

أي: إذا لم تفهم هذا مني، فإني سأحيل الأمر إلى خليفة المسلمين عمر، وعمر أدرى الناس بالمآلات وسد الذرائع وفهم الأولويات...

التحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم حسن، لكنه حين يكون تحديثًا في أحكامٍ تختصّ بالأمة فإنه يعود على الأمة بتنظيم أمورها وترتيب شؤونها.

لكن ما الذي يعني الأمة أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في ظرفٍ ما لشخصٍ ما من أصحابه كلمة، لا يُرَتَّب عليها حكمٌ شرعيٌّ من الأحكام التي تُنظّم أمور الأمة؟

وهكذا كان الأصحاب رضي الله تعالى عنهم يفهمون حُكم الوقت، ويعلمون أن أحكام الإسلام ينبغي أن تؤخذ بدون أن نُفرِّق، لكن مع ملاحظة حُكم الوقت ووعي الظرف، وفهم ترتيب الأولويات.

- ويدخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه مُنكِرًا، وهكذا نجد حماس الشباب الذي يُقابَل بحكمة الكبار الذين فهَّمَهم الله سبحانه وتعالى وشرح صدورهم ووسّع قلوبهم.

عمر بن عبد العزيز الرجل الصالح لكنه الرجل الحكيم، وحينما يجتمع الصلاح مع الحكمة عند ذلك تستطيع أن تأخذ أمورًا كثيرة، وأن تصل إلى غايات تربوية كثيرة.

لكن ابنه الذي تربى في حجره ما يزال يملك الحماسة، وما يزال يملك العنفوان، ويرى أباه الذي صار خليفة المسلمين، ويرى من حوله ناسًا من بني أمية لا يزالون في بغيهم، ولا يزالون في ثرائهم، ولا يزالون في الفوضى، ويريد من أبيه أن يستأصل شوكتهم، وأن يغيّر ما يراه من المنكر وهو خليفة المسلمين.

يقول عبد الملك لأبيه عمر بن عبد العزيز (وانظروا كيف يستوعب الأب وكيف يتحدث الولد): يا أمير المؤمنين، ما أنت قائلٌ لربّك غدًا إذا سألك فقال: رأيت بدعةً فلم تُمتها، أو سنةً فلم تُحيِها؟

أنت ترى بأمّ عينك يا أبي وأنت العالِم العليم البِدَعَ من حولك، وأنت لا تُميت هذه البِدع؟! وترى سُننًا كثيرة ضائعة ولا تُحييها، وأنت خليفة المسلمين؟!

فيقول له أبوه: يا بنيّ، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة (أي: ما آل الأمر إلى بني أمية إلا بعد أن تم إحكام الأمر فيه إحكامًا شديدًا)، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا فتقًا تكثر فيه الدماء، واللهِ لَزوالُ الدنيا أهونُ عليّ من أن يُراق بسببي محجم دم.

وهكذا كان يستوعب، وبدأ بالتغيير الهادئ الحكيم، وما كان نتيجةُ ذلك التغيير إلا أن وُضِع السمُّ له رضي الله تعالى عنه، ولم يحكم في الأمة إلا أقلَّ من سنتين، لكنه كان رضي الله تعالى عنه يعي ويفهم الظرف الذي هو فيه، وكان يفهم من هم أعوانه، ومن هم الذين يحيطون به، وكان يتدرّج في التغيير.

- وأختم بالحادثة الشهيرة التي كتبها التاريخ عن ذلك العالِم الرجل الصالح عبد الله بن المبارك، يومَ أن سار في طريقه إلى الحج، ووجد في طريقه جارية تخرج من دارها إلى مكان القمامة، فتجد طائرًا ميتًا فتأخذه وترجع به إلى البيت، فاستوقف هذا المشهد عبد الله بن المبارك، وقال لها: أما علمتِ أن الله حرّم الميتة؟

قالت الجارية: منذ أيام ونحن ليس عندنا طعام، ومنذ أيام أحل الله لنا الميتة فصارت لنا حِلاً، لأننا في حالة جوع شديد، وكان يحمل معه في رحلة الحج ألف دينار من الذهب، فقال لغلامه: أبقِ لنا من الدنانير عشرين دينارًا نرجع بها، وأعطِ بقية الدنانير للجارية، فإطعام الجياع أفضل عند الله من الحج.

هكذا رتّب الأولويات، وهكذا أدرك أن حكم الحج عظيم، وأن خروجه إلى الحج عظيم عند الله، لكنه وهو يخرج لزيارة الكعبة يرى أمامه مسلمًا حُرمتُه عند الله أعظم من حرمة الكعبة، فينقذه.

متى نفهم الأولويات؟

متى نتفاعل مع الظرف، ونتفاعل مع الوقت ونُدرك حكمه؟

متى نفهم الإسلام فهمًا جيدًا، لكننا مع فهم الإسلام نراعي حكم الوقت؟

واليوم يتحدث العالم كله عن ضرورة محاربة المخدرات، ولا شك أن الإسلام يمنع المخدرات، وقد اعتُمد يومٌ عالميٌّ من أجل أن يكون يومًا تتضافر فيه الجهود من أجل الحد من المخدرات، وهذا صحيح، لكن ينبغي علينا أن نتساءل: من الذي يقع في تعاطي المخدرات؟

هل يقع في تعاطي المخدرات شخصٌ توجّه قلبه إلى الله؟

هل يقع في تعاطي المخدرات شخصٌ عانت روحه السعادة ولذة القرب وأنس الوصال؟

هل يقع فيها أهل المعصية والمخالفة، أم أهل الطاعة لله سبحانه وتعالى؟

هل يقع في تعاطي المخدرات أهل المساجد، أم الذين تحللت أخلاقهم وبحثوا عن طريقٍ آخر للمتعة؟

إذًا: نحن بحاجة أن نعالج هذه القضية، لكن ينبغي أن نعالجها من جذورها، فينبغي أن نعالجها بالتوجيه السلوكي، وينبغي أن نعالجها معالجة بيئية، وينبغي أن نعالج الظرف الذي وُجدت فيه، فما كانت هذه الظاهرة منتشرة فيما مضى في بلاد أمتنا الإسلامية، لكنها بدأت تنتشر مع اضمحلال الوازع الدينيّ، ومع اضمحلال التوجه إلى الله، وحينما يرجع الناس إلى الله تبارك وتعالى لن تجد متعاطيًا للمخدرات.

فهمُ الظرف والمخاطَب والمرحلة ينبغي أن يكون حاضرًا في ذهن كلّ من يريد أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى، فربما تكون أمامك التشريعات الإسلامية حاضرة ولا تحسن التوجيه في الوقت، ولا تتدرج ولا تراعي... فينبغي أن يراعى الظرف في الوقت.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.